المشرق

جمعة الآلام في الكنائس الشرقية

نظر للاب لويس شيخو اليسوعي

ينتهي الصوم الاربعيني في الكنيسة بذكر الاسرار الرهيبة والاعمال العجيبة التي اتاها السيد المسيح قبل ان يعود الى ابيه السماوي . وقد خص التقليد الرسولي لهذا التذكار الجليل جمعة كاملة ليطبع المسيحيون في قلوبهم سر الفداء الذي لاجله كان تجسد ابن الله وتصرفه مع البشر مدة ثلاث وثلاثين سنة . ذلك كان العمل العظيم الذي اشار اليه لشعيا في نبوته (٦٢ : ١١) فجعله الرب امامه ليتممه . تلك كانت الوصية التي قبلها من ابيه (يوحنا ١٠ : ١٨) ليبذل نفسه دون الخطأة . والصبغة التي كان يتوق الى الاصطباغ بها فيتضايق حتى تكمل (لوقا ١٢ : ٥٠)

وقد عرفت الكنيسة عظم هذه الأحداث فلم يمكنها ان تتغاضى عنها لا بل عليها بذلت كل طقوسها ورتبها الدينية فلا تكاد تجد في صلواتها ومناسكها عملا واحدا الا وفيه ذكر صريح او اشارة وتلميح الى تلك الاسرار ولا سيما في الذبيحة الطاهرة التي يقدمها الكهنة بلا انقطاع في كل اطراف المسكونة . وانما ارادت فضلا عن ذلك ان تخصص اسبوع تام لتجديد ذكر عمل الفداء فتكون كل افكار ابنائها منقطعة الى ما قالة وفعلة الحمل الرافع بموته خطيئة العالم (يوحنا ١ : ٢٩) وقد وضعت الكنيسة لهذه الغاية عدة صلوات ورسوم من شأنها ان تبعث في القلوب عواطف التقى

وشواعر الحبّ والشكر نحو من تنازل وقدّم نفسهُ ضحيّة عن الجبلة الآدميّة . وليس مقصودنا في هذه النبذة سوى ذكر بعض العادات التقويّة التي جرت في كنائس الشرق في هذه الأيام المباركة بنسبة وقوعها في التقويم في هذا الفصل من السنة

*

﴿ اسماء هذا الاسبوع ﴾ لهذه الجمعة السابقة لعيد الفصح اسماء متعدّدة تدلُّ كلّها على شرفها وسموّ مقامها في اعين المسيحيين . واوّل هذه الاسماء الجمعة العظيمة او الجمعة المقدّسة دعوها بذلك لما يُقام فيها من الرُّتب الحافلة ويُذكر من الاسرار القدسية ولما يمارسهُ النصارى من اعمال الصلاح استعداداً لاحد القيامة . وقد اوضح ذلك القديس يوحنّا فم الذهب في ميمرهِ الموسوم بخطبة الجمعة العظيمة (Migne, PP. GG., LV, 1037) قال :

« انَّ هذه الجمعة الكبيرة هي لنا بداية المرفأ للمسافرين بحراً والسَّبَق لمن يسابقون في الميدان والاكليل لمن يتصارعون في الملعب . فهكذا الاسبوع الحاضر فانهُ لنا رأس كل خير نحصل بهِ على الاكلّة الموعودة . وانّنا ندعوهُ بالاسبوع الكبير لا لطول ايّامهِ بل لعظم المآثر التي اصطنعها الربّ فان فيه بطل حكمُ ابليس وكُسر مهاز الموت وولّى مدبراً ذاك العدوّ القويّ وبادت اسلحتهُ . فيهِ انتسخت الخطيئة وسقطت اللعنة وانفتح باب النعيم وصارت سبيلهُ ممهّدةً وتلاشى ذاك الجدار الفاصل بين الملائكة والبشر وأُميط الستر الحاجب للجلال الالهي فالتقى الربّ بالسلام للسماء والارض »

وقد شاعت اسماء اخرى لهذا الاسبوع الكبير فدعتهُ ايضاً الكنيسة اليونانيّة اسبوع الآلام المُحيية والاسرار الخلاصيّة . وكذلك الكنائس السريانيّة تدعوه باسبوع الحاش اي الآلام . ومن اسمائهِ جمعة الغفران لأنَّ الاساقفة كانوا يصلحون في هذه الأيام التائبين مع جماعة المؤمنين بعد فروغهم من التأديبات الكنسيّة المفروضة عليهم لخطاياهم . وكان قياصرة الروم والامبراطرة ينفذون في هذا الاسبوع رسائل الى عمّالهم ليطلقوا سراح الاسرى والمسجونين اقتداء بمثل السيد المسيح الذي بآلامهِ فكَّ اسر البشر وخلّصهم من قيود الجحيم . ودُعي هذا الاسبوع بالاسبوع الفارغ (ἑβδομὰς ἀκράτητος) يريدون خلوّهُ من الاعمال الشرعيّة في المحاكم . واليه ايضاً اشار القديس يوحنّا فم الذهب في خطبتهِ المذكورة . قال :

« ولسنا وحدنا الذين نكرّم هذه الجمعة الكبيرة بل يعظمها ايضاً ملوكنا المسيحيّون اذ يأمرون

بابطال المحاكمات والدعاوي ليتفرّغ الجميع للاعمال الروحيّة ويفكّر العبيد في اصطناع المبرّات فيشاركوا الربّ في مساعيهِ المطهرة »

﴿ افتتاح جمعة الآلام ﴾ يكون افتتاح جمعة الآلام بذكر دخول السيّد المسيح في اورشليم بالرونق والأبّهة يوم ركب الاتان في بيت فاجي فسار الى القدس الشريف مصحوباً بقوم من بني اسرائيل كانوا تقاطروا اليهِ بسعف النخل وبسطوا ثيابهم في طريقهِ وصرخوا متهلّلين: هوشعنا بابن داود مبارك الآتي باسم الربّ. فذلك احد الشعانين وعيد النخل او الزيتون قد سبق لنا في المشرق (٨: ٣٣٧) وصف حفلاتهِ ورتبهِ فلا نرى حاجةً الى تكرار ذكرها

﴿ النصف الاوّل من اسبوع الآلام ﴾ وهي الاثنين العظيم والثلاثاء العظيم والاربعاء العظيم تبتدئ فيها الكنيسة بذكر الامور التي جرت بين الشعانين والعشاء السريّ فكانت كتهيئة قريبة للآلام. وترى في طقوس كلّ الكنائس ما يُشعر بالحزن والكآبة فتُقرأ الفصول من اسفار العهد العتيق التي فيها نبوّات عن آلام المخلّص كبعض فصول اشعيا وارميا وكقصّة يوسف الحسن واسرهِ اذ كان رمزًا عن المسيح المبيع من شعبهِ. وكذلك تُتلى امثال الانجيل التي تُشير الى رذل الشعب اليهودي كمثل التينة التي لعنها الربّ ومثل العذارى الحكيمات والجاهلات وذكر خيانة يوداس ويتلون فصل المرأة التي دهنت رأس المسيح بالطيب ذكرًا لدفنهِ. وكلّ هذه الرسوم قديمةٌ ترتقي الى القرون النصرانيّة الاولى قد جاء وصف كثير منها في الرحلة المنسوبة للقديسة سيلفية في القرن الرابع للمسيح في اثناء زيارتها للقدس الشريف وكانت حضرت هذه الرتب فوصفتها عن عيان

ومما رواهُ ابن سباع القبطي في القرن الثالث عشر في كتابهِ الجوهرة النفيسة في علوم الكنيسة (ص ١٦٠): انّ القبط في هذه الايام كانوا يمتنعون عن التقديس وعن رفع البخور وتجنيز الموتى وانهم كانوا يصلّون خارجاً عن الهيكل. وقد علّل ذلك بقولهِ انّ بني اسرائيل على حسب امرهِ تعالى (خروج ١٢: ٢٨—٣٠) كانوا يشتون خروفاً حولياً في العاشر من الهلال ويذبحونهُ عند مغيب الشمس في الرابع عشر منهُ. وكذلك المؤمنون بالمسيح يبطلون القداس او الذبيحة في هذه الأيام الثلثة « لان القداس فيهِ خروف الله يسوع المسيح المذبوح عن خطايا العالم ». وكذلك عُلّل صلاتهم خارجاً عن

الهيكل في هذه الأيام بقوله : « وسبب صلاتهم خارجاً عن الهيكل في هـذه الثلاثة أيام هو لأن المسيح قد تألم خارج المدينة كما قال الرسول (عبر ١٣ : ١٣) : « فلنخرج معهُ خارج المحلَّة حاملين عارهُ (اي صليبهُ) . فلذلك رتَّبت آباء الكنيسة أنْ يُصلَّى كلّ هذا الاسبوع خارجاً في الخورس الاوسط »

ومن غريب عادات بعض نصارى هذه البلاد انَّهم ينقعون يوم ثلاثاء اسبوع الآلام الماء بالزهور ويغتسلون بهِ في الاربعاء ويزعمون انها بركةٌ تردُّ عنهم عدَّة اعراض كالرمد وغير ذلك . ومنهم من يستحم في هذا النهار في البحر . وهم يدعون هذا الاربعاء اربعاء أيوب . وقد وجدنا وصف هذه العادة في كتاب المدخل لابن الحاج في القرن الرابع عشر لكنهُ يجعلها في يوم سبت النور قال (١ : ٦ : ٣٠) : « فمن ذلك ما يفعلونهُ في سحر ذلك اليوم وهو انهم يجمعون في امسهِ ورق الشجر على انواعها حتى الريحان وغيره فيبيتونهُ في اناء فيهِ ماء ويغتسلون بـهِ ثمَّ يأخذون ما اجتمع من غسلهم ويلقونهُ في مفرق الطريق ويزعمون انَّ ذلك يذهب عنهم الامراض والاسقام والكسل والعين والسحر . . . » والظاهر انَّ هذه العادة قد بطلت اليوم عند الاقباط لكنَّهم يصطنعون الاربعاء فريكا ويوزعونهُ على المحتاجين . ومن عادات بعض اهل الشام انهم يحجبون في هذا النهار المرايا

وفي مساء هذا يوم الاربعاء تقدّم الكنيسة الغربيَّة صلاة الليل القانونيَّة المعروفة بالظلمات دُعيت كذلك لأنَّهم يطفئون في اثنائها الشموع الموقدة اما تنويهاً بالظلمة التي امتدَّت على وجه الارض بكسوف الشمس عند موت المسيح واما اشارةً الى حزن الكنيسة لموت الرب شمس البرّ ونور العالم . وقيل ايضاً انَّ هذه الانوار المطفأة تدلُّ على تبدُّد التلاميذ وخذلانهم للمسيح وقت آلامهِ ولذلك يتركون شمعةً غير مطفأة يحجبونها وراء الهيكل يرمزون بها الى البتول مريم التي وحدها حفظت في قلبها الايمان بلاهوت ابنها رغماً عمَّا اصابها من الاكدار والاحزان . وقال آخرون انَّ الشمعة الموقدة المحجوبة يُقصد بها دفن المسيح واحتجابهُ في قبرهِ ثلاثة أيام . وهذه الرتبة كانت شائعة في القرون الاولى في كنائس الشرق فاستعارتها منها الكنيسة الغربيَّة

﴿ خميس الاسرار ﴾ نُسب هذا الخميس الى الاسرار لأنَّ فيهِ كما قال يوحنَّا الرسول قد احبَّ الربُّ رسلهُ فاظهر لهم الحبَّ الى منتهى الغاية فرسم تلك الاسرار العجيبة التي اورثها كنيستهُ الى آخر الاجيال . ويسمَّى ايضاً يوم الخميس الكبير والخميس

المقدّس وخميس الفصح قال ابو الفداء (١ : ٩٦) «لأنّ المسيح افصح فيه بالخبز والخمر» ويدعوه السريان خميس الاسرار (ܚܡܝܫܝ ܕܨܒܘܬܐ). ويُعرف ايضاً بخميس العهد وهكذا دعاهُ المقريزيّ في الخطط (١ : ٤٩٥) قال: «ويسمّيه اهل مصر العامّة خميس العدس ويعملهُ نصارى مصر قبل الفصح بثلاثة أيام ويتهادون فيهِ (١). امّا سبب تسميته بخميس العدس في مصر فعلّلهُ ابن الحاج في المدخل (١ : ٣٠٥) بقولهِ: «انّ نصارى مصر كانوا يستعملون العدس المصفّى ويتحرّونهُ في ذلك اليوم وكانوا يزعمون انّ من لم يفعلهُ منهم تشوّش هو واهلهُ»

ومن مخصوصات هذا العيد ذكر العشاء السرّي الذي اقامهُ الرب مع تلاميذهِ وابطل فيهِ الفصح القديم ورسم فصحاً جديداً فأعطى جسدهُ ودمهُ الطاهرين مأكلاً ومشرباً لذويهِ بدلاً من الحمل الفصحيّ الذي كان مرموزاً بهِ عنهُ. فكل الكنائس في هذا اليوم تحتفل بهذا السرّ احتفالاً عظيماً وكان المسيحيّون في القرون السابقة ينقطعون فيهِ عن كلّ الاشغال المادّيّة كما في الاعياد الكبيرة ثمّ جعلوهُ نصف عيد لاسيما منذ جرت العادة لاكرام سرّ القربان في موسم بهيج في الخميس التالي لخميس الصعود فبقي خميس الاسرار مختصاً بذكر العشاء السرّي

ولا يُقام في هذا النهار غير قدّاس واحد لكنهُ يُتلى بكل رونق وبهاء. والكهنة الحضور يقبلون القربان الاقدس من يد الاسقف او الرئيس المتولّي الحفلة يشيرون بذلك الى العشاء السرّي حيث المسيح وحدهُ رسم القربان بصفة كاهن العهد الجديد وقبلهُ التلاميذ من يدهِ. وكانت العادة في القرن الرابع ان يُقدّس في هذا النهار وحدهُ على الجلجلة وراء المكان الذي نُصب فيهِ الصليب كما ورد في رحلة القديسة سيلفية (Gamurrini: S. Silviæ peregrinatio, 93)

واعلم انّ في صلوات الكنائس الشرقيّة في هذا النهار ادلّةً لا تُحصى وحججاً دامغة على اعتقاد المسيحيين باستحالة الخبز والخمر الى جسد ودم السيّد المسيح مع وجود طبيعتيهِ تحت اعراض هذه الاشكال المحسوسة. ولو اردنا ذكر هذه الشواهد لطال بنا

---

(١) وقال ايضاً: «انهُ كان من جملة رسوم الدولة الفاطميّة في خميس العدس ضرب خمسمائة دينار ذهباً وعشرة آلاف خرّوبة وتفرقتها على جميع ارباب الرسوم»

المقال (١ وكفاك ان تعرف انَّ للكنيسة القبطيَّة موعظةً في القربان المقدَّس اثبتها ابن سباع في كتابه الجوهرة النفيسة في علوم الكنيسة (ص ١٣٢—١٣٦) تُقرأ في هذا النهار (ص ١٦١) يقول في اثنائها:

« انَّ الرب بقوله جسدي مأكل حقّ ودمي مشرب حقّ أباح لنا ان نأكل جسدهُ ونشرب دمهُ الحقيقيين وليس مجازيًّا ولا استعارةً ولا كناية ومن ذلك يتسبَّب لنا اتصال حياتنا الابديَّة وتثبت فيه وهو يثبت فينا فلا يلزمنا اذًا ان نتأخر عن اكل جسده وشرب دمه »

وكذلك يشهد البطريرك النسطوريّ ايليا الثالث المعروف بابي حليم في ترجامه الثالث عشر (طبعة الموصل ١٠٩—١١٧) الذي لهذا اليوم. وفيه يقول:

« اعلموا انَّ فصحنا نحن معاشر الابناء. كما قال بولس رسول السماء (١ قور ٥: ٨) ليس هو بخمير العتق ولا بخمير السوء والخبث بل بفطير الخلوص والحق. ليس كالفصح الاعتق الخليق. ولكن بدم السيد المسيح الذي سُفك عن كلّ الخلائق وأُريق. هو الاضحيَّة الناطقة التي تطهّرنا من دنس الآثام بدمها وتخلّصنا من آثار الذنوب والاجرام بآلامها. وذلك بانَّ مخلّصنا لمَّا اكل الفصح الفطيري واكمل ناموس القصاص. قرَّر قواعد فصحهِ السرّي مع التلاميذ الخواصّ. واخذ خبزًا ادرَّ عليهِ منابع البركات. ونثر عليهِ من قدسيّ فمهِ شذور الدعاء ودُرَّ الصلوات. قائلًا هذا جسدي المبذول عن قاطبة الخلائق. والاضحيَّة التي اضحت خاطبةً لغفران الخطايا من لدن الخالق. ثمَّ اخذ كأسًا من الرحيق. وقال انَّ هذا لدمي على التحقيق. فمن شرب منهُ فاز بالحياة الابديَّة. وأعدَّ لهُ سرادق العزّ والاكرام في العراص الملكوتيَّة. هذا هو الخبز النازل من سماء العزَّة. وملبّس القلوب والاذهان اسنى بزَّة. . . »

والمسيحيُّون في الغالب لا يكتفون بحضور هذه الرتب لكنَّهم يتقرَّبون ايضًا من الاسرار وتلك عادةٌ بل سنَّة شاعت في كنائس الشرق كما في الغرب. وقد وجدنا شاهدًا على ذلك في كتب العرب قال ابو الفرج الاصبهاني في ترجمة عديّ بن زيد الشاعر العبادي (في كتاب الاغاني ٢: ٣٢) يذكر هند ابنة المنذر: « وخرجت (هند) خميس الفصح وهو بعد الثمانين بثلاثة ايَّام تتقرَّب في البيعة »

وفي آخر القدّاس يُحمل القربان الاقدس في موكب حافل وبرتبة جليلة الى مكان مزدان بالشموع وضروب الاقمشة والانسجة الثمينة والآنية الفاخرة فيُصعد الى اليوم الثاني وهناك يتوارد المسيحيون لتأدية فرائض السجود دون انقطاع

---

١) من اراد كلامًا مطوَّلًا في ايمان الكنائس الشرقيَّة بسرّ الاستحالة عليهِ بفصول مسهبة للعلَّامة البطريرك مار اسطفان الدويهيّ في كتاب منارة الاقداس الذي طبعهُ في مطبعتنا الاستاذ الفاضل رشيد افندي الخوري الشرتوني (ج ٣ ص ٢٢٥—٢٦٩)

ثمَّ تُعرَّى المذابح من كسوتها برُتب معلومة في الكنيسة اليونانيَّة وتُغسل غسلًا نعمًا بالماء الحارّ ثم بالماء المطيَّب يشيرون بذلك الى تطييب جسد المسيح بعد صلبه

ومن الرُّتب الشائعة في هذا اليوم عينهِ رُتبة غسل الأرجل يقوم بها الاسقف او احد كبار الرؤساء والكهنة فيمثلون احسن تمثيل غسل الرب لاقدام تلاميذهِ بعد لكمهِ للفصح العتيق كما اخبر يوحنَّا في انجيله . وقد ألف هذه العادة الاحبار الرومانيون فيتممون وصيَّة الربّ بغسل الاقدام لاثني عشر شمَّاسًا ولاثني عشر فقيرًا وكذلك يرى على هذه العادة ملوك النصرانيَّة في الزمن القديم ويجري عليها في يومنا امبراطور النمسا اقتداء بمثل السيد المسيح فيغسل ارجل الفقراء اتضاعًا

ومذ هذا اليوم تتضاعف الكنيسة اكتئابها وحزنها فيُحجب في كنائس الشرق الهيكل بالاستار وتُغلق ابوابهُ . ويمثلون على الاستار شعائر الآلام . ولا يتركون على المذابح سوى الصليب وحدهُ

ومن خواصّ هذا اليوم ايضًا تقديس الزيت الذي تتخذهُ الكنيسة في اسرارها وهذا الزيت على ثلاثة ضروب فمنهُ زيت المرضى للمسحة الاخيرة . ومنهُ زيت الميرون يُستعمل في منح الاسرار الثلاثة اي العماد والتثبيت والكهنوت . ومنهُ زيت للموعوظين يُتَّخذ في سرَّي العماد والكهنوت وفي مسح الملوك . ولها كلها بركة رُتب طويلة وبهيَّة يقوم بها الاسقف وعدد عديد من الكهنة والشمامسة . وكان البطريرك وحدهُ في كنيسة القسطنطينيَّة يتولَّى تقديس الزيت بأبهة عظيمة يساعدهُ فيها المطارنة والاساقفة . ويتأنَّقون بتركيب الميرون فيدخلون في مادَّتهِ نحو اربعين شكلًا من الطيوب والاقاويه (١ . وكثير من هذه الرتب ترتقي الى قرون النصرانيَّة الاولى كما يظهر من شواهد مختلفة للآباء الاولين كالقديسين قبريانوس وباسيل وافرام وجلاسيوس ونصوصهم تدلُّ على ان ذلك تقليد متواتر يرتقي الى أيام الرسل (مرقس ٦ : ١٣ ويعقوب ٥ : ١٤) . ولم يكن في اوَّل الكنيسة يوم محدود لرتبة تقديس الزيت والميرون ثم خصُّوا بهذه الرتبة سبت النور ثمَّ نقلوها الى خميس الاسرار . وكانوا اوَّلًا لا يباركون غير الميرون في هذا اليوم . ثم اخذوا بتبريك الثلاثة الاصناف من الزيت المقدس تيسيرًا للامر . وكذلك جعل الاساقفة الشرقيون يفوّضون الكهنة في تبريك الزيت والميرون

(١ اطلب صورتها في الافخولوجيون الكبير (ص ٢٦٧)

ومما كانت ايضاً تحتفل به كنائس الشرق في مساء هذا النهار ذكر صلاة الربّ في بستان الزيتون وتسليم المسيح لاعدائه على يد يوداس التلميذ الخائن وكانوا يتلون في ذلك المساء التسابيح والصلوات وينشدون الاناشيد وربّما اتّخذوا كاهناً يمثل لهم حسيًّا تلك الأحداث. وقد اخبرت صاحبة رحلة القدس السابق ذكرها انّ هاتين الرتبتين كانتا جاريتين في اورشليم مساء يوم الخميس وانّ الشعب كلّهُ كان يبكي ويعول اذا ما رأى يهوذا الاسخريوطي مسلّماً سيدهُ للموت

﴿ الجمعة العظيمة ﴾ هذا اليوم كلهُ للحداد والحزن والتوبة وذكر الآلام التي احتملها ابن الله بمشيئته لخلاص البشر. وكانت الكنيسة في سالف الاعصار تقضي الليل كلهُ في اقامة هذه الاسرار لتشارك المسيح في اوجاعه. وكانوا لا يستثنون من هذه الفريضة احداً حتى الاطفال فوق السابعة من سنّهم. ولنا شاهد على ذلك في رواية القديسة سيلفية عن ليلة الآلام في القدس (ص٩٤) وفي صلوات القنقيط في كنائس السريان وهي تستغرق الليل كلهُ. وكذا كانت تفعل بقيّة الكنائس شرقاً وغرباً

ومن شارات هذا الحزن العظيم سجود الكهنة بخورهم على الوجوه يمثلون بذلك كأبة المسيح في بستان الجمانية. ومنها لبسهم الحلل السود وهو لون الحداد. قال الدويهي في منارة الاقداس (٢: ٤٤٢) : «ولاجل هذا الحزن الشديد رسمت البيعة عند ما تصنع تذكارهُ ان ترتفع المراوح ويبطل دُخان البخورات وتُطفأ المنائر وتُغلق ابواب القدس ويصمت الشمامسة عن الترتيل ورأس الكهنة ينزع عنهُ تاج الكرامة وبطرشين السلطة ويترك عصا الرعاية. وكالبيامة التي فقدت قرينها ينوح في السرّ اذ يرسم بالجوهرة صلبان الآلام والموت فوق الدم المسفوك في الكأس». وكل هذه امائر الحزن رموز الى ما لحق بالمسيح من الاوجاع او ما حلّ بالطبيعة من الاكدار لموته على ما ذكر الانجيليون

وفي هذا النهار تبطل الذبيحة في كلّ الكنيسة فلا يقدَّس غير القربان السابق تقديسهُ يوم الخميس يريدون بذلك انّ ذبيحة الصليب الدمويّة هي التي تقوم مقام كلّ الذبائح غير الدمويّة التي تقدَّم على المذابح ومقام ذبائح العهد العتيق التي بطلت بموت المسيح كما ورد في نبوّة دانيال (٩: ٢٧). وكانوا يبدلون الذبيحة بادعية مستطيلة يرفعونها الى الله لاجل الكنيسة كلها من مؤمنين وغير مؤمنين لا يستثنون من ذلك

عبدة الاصنام واليهود . وهذه الادعية قديمة جداً ذكرها القديس لاون الكبير في القرن الخامس

وفيه ايضاً رفعُ الصليب وعرضهُ على كل الحضور ليقدّموا لهُ السجود الواجب لانهُ الراية التي بها انتصر ابن الله على قوّات الجحيم وبها فتح لنا السماء الموصد بالخطيئة الجدّية . وبعد السجود يُنصب الصليوت على الهياكل ليكرَّم فتُجمع امامهُ الشماعد الموقدة ويُقدَّم لهُ البخور وتُتلى امامهُ المزامير والصلوات . والقبط يقولون كيريالیصون اربعمائة مرّة مشة مرّة لكلٍّ من الجهات الاربع مع ضرب المطانيات او السجود ثمَّ يدورون حول الهيكل بالصور والصلبان ثلاث دورات . وفي بعض الطوائف يمثلون الظلمات التي انتشرت على جميع الارض يوم موت المسيح فيطفئون كلّ الشموع عشاء فلا يُرى غير الصليب ويصوّرون الشمس مكسوفةً والقمر مخسوفاً بصناعة دقيقة تحيك في القلوب وتبعث التقوى في النفوس . وروت القديسة سيلثية في رحلتها انَّ اسقف اورشليم كان في مساء هذا النهار يعرض على اهل المدينة ذخائر الآلام ولا سيما قطعة الصليب المقدَّس فيكرمها الجميع بالتقبيل والسجود

ومما يسم الكنائس الشرقيَّة كافَّةً رتبة الدفن . وذلك انَّ المؤمنين يجتمعون اصيل النهار فتُتلى صلوات شتَّى تذكر بآلام المسيح وربما خطب الخطباء في سرّ الفداء وفي موت الرب على الصليب . ثمَّ يفكُّون صورة المصلوب عن صليبهِ ويغسلونها بالماورد ويلفُّونها في ستر ابيض شبه الكفن ويحملونها على نعش مزيَّن بالزهور يحملهُ الكهنة وينقلونها بموكب عظيم يتقدَّمها الاكليروس بالبخور ويتغنَّى الشمامسة والشعب بالالحان الشجيَّة ذات المعاني البليغة والالفاظ الرخيمة والعبارات المؤثرة المقتطفة من اقوال الآباء والملافنة . فاذا بلغوا الى القبر وهو عبارة عن مقام داخل الهيكل مزيَّن بالزهور وضروب الحليّ في وسطهِ شبه تابوت يُضجعون المصلوب فيهِ على المخمل بين الرياحين وجههُ الى الشرق ثم يقفلون القبر بوضع الختوم عليهِ كما فعل اليهود بقبر المسيح . فيبقى المصلوب هناك الى رتبة القيامة يتقاطر اليهِ الشعب ليكرّموهُ في قبرهِ

وقد زاد البعض منذ سنين حفلة درب الصليب اخذوها عن المرسلين اللاتينيين فاضافوها الى طقوسهم وجعلوها كسلك ختام هذا اليوم العظيم

﴿ السبت الكبير ﴾ ويُدعى ايضاً السبت المقدَّس وسبت الدفن وسبت النور .

وهو جامع بين الحزن والفرح فالحزن اشارة الى دفن السيد المسيح والى كآبة تلاميذه وامه الطاهرة بعد موته. والفرح بظفر الربّ من الموت وفرح نفسه السعيدة عند حلولها في جحيم الينبوس لتبشر الآباء بالخلاص وتفك اغلالهم. ويدخلها شيء من فرح القيامة لأنّ الرتب التي تقام فيها كان حقها ان يحتفل بها ليلاً ثمّ قدّمتها الكنيسة واقامتها في النهار لئلا تثقل اعباؤها على المؤمنين

واوّل ما يختصّ بهذا العيد بركة النار الجديدة. فانّ الانوار كانت طفئاً في الليلة السابقة اشارةً الى الحزن والكآبة فاتخذت الكنيسة لايقادها رتبةً خاصّة بصلوات معلومة تتلى في خارج الكنيسة ومنها توقد بقيّة الانوار مباشرةً بالمشعل المثلّث الشعب رمز الثالوث الاقدس ثمّ الشمع الفصحيّ الذي هو رمز القيامة ويوقد في الحفلات الكبيرة الى عيد صعود الربّ ثمّ قناديل الكنيسة وكلّ ذلك بصلوات تقويّة تشير الى السيّد المسيح الذي بقيامته بدّد الظلمات التي كان العالم متسكّعاً فيها قبل مجيئه ولذلك دُعي هذا النهار سبت النور. وقد روى بعض الكتبة الثقات انّ هذه النار الجديدة ظهرت في بعض السنين السالفة بطريقة عجيبة في القدس الشريف في كنيسة القبر المقدس. امّا ما يزعم الزاعمون انّها لا تزال حتى اليوم تتّقد هناك بالمعجزة فلا اصل له البتّة ولم يعد احد يصدّقهُ غير السذّج من العامّة

ومن رتب هذا العيد عماد الموعوظين الطالبين التنصّر فانّ الكنيسة تمنحهم هذا السرّ خصوصاً في سبت النور وهو يوم أليق من سواه لذلك لانهُ واقع بين موت المسيح وقيامته فكذلك المعموديّة تجيز الانسان الذي ينالها من موت الخطيئة الاصليّة الى قيامة الحياة والتبنّي لله. فيدفن الخاطئ في مياه المعموديّة الرجلَ العتيق ليلبس الرجل الجديد كما قال الرسول في رسالته الى اهل كولسّي (٢ : ١٢) : « دُفنتم مع المسيح في المعموديّة التي فيها ايضاً أُقمتم معهُ بايمانكم »

وهذه رتبة العماد تتمّ بكل رونق وبهاء في الكنائس الكاتدرائيّة فيذكّرونهم بعظم السرّ الذي يطلبونهُ ثمّ يتلون عليهم صلوات التعزيم لينجوا من قوّات الارواح الشرّيرة ثمّ يدهنونهم بزيت الموعوظين. وبعد قراءة اثني عشر فصلاً من النبوّات التي تشير الى المعموديّة وتجدّد الانسان بالنعمة يباركون اجران المعموديّة ثمّ ينصرون الموعوظين بمنح سرّ العماد ويمسحونهم بالميرون ويلبسونهم الثياب البيض دلالةً على ثوب البرارة الذي كسا

به الله نفوسهم ويتقرّبون آخرًا من سر القربان. اما الكنائس التي لا يُمنح فيها العماد فتقتصر على طلبات القديسين

ومن الرُّتب الجليلة التي ألفتها الكنائس السريانيَّة في هذا النهار رتبة الساعة يجتمع فيها الاكليروس مع العالمين وبعد تلاوة الصلوات والتماس الغفران عن الذنوب من مراحم تعالى يخرّ الرئيس على الزّكب ويطلب ثلاثًا من الحضور الساعة عن سيّئاته وكذلك يفعل الشعب فيستعذُون بذلك لعيد القيامة المجيد بالمحبَّة واتّفاق القلوب

وفي جميع الطوائف الشرقيَّة يحتفلون يوم سبت النور او صباح القيامة برتبة فتح القبر والبعض يدعونها رتبة السلام فيذهبون بموكب عظيم الى القبر ويفضُّون الختوم ويترعون عن المصلوب لفائفهُ وينصبونهُ بعد تبخيره من عن يمين المذبح بين الشموع والمراوح واصناف الورد والرياحين ويصلون بقيامة المسيح ويتلون في ذلك صلوات وتسابيح بالحان مفرحة

وقداس هذا النهار هو قداس القيامة يترعون في اثنائهِ ثياب الحداد عن الهياكل ويقرعون الاجراس ويزينون الكنيسة بآنية الاعياد ويرتّلون ترتيل الفرح والهليلويا التي كفُّوا عنها منذ الاحد الثالث قبل الصوم

وهذا القداس الحافل يصير عند الارمن والسريان في مساء السبت. وكانت الكنيسة القسطنطينيَّة تقيم هذه الحفلة ليلًا فيقضي الشمامسة والكهنة نحو نصف الليل في تلاوة الصلوات والاسفار المقدَّسة ثمَّ يطوفون حول الكنيسة بالرايات دون الاتوار فاذا وصلوا الى بابها الغربيّ قرعوهُ فينفتح امامهم وتظهر الكنيسة مشعَّة بالانوار مزدانة باصناف الحليّ ويباشرون برتبة القيامة ويفتتحونها بتقبيل الانجيل الشريف الذي يمسكهُ الاسقف او متولّي الرتبة بمنديل من الحرير الابيض ثمَّ يقبّلون بعضهم بعضًا بقبلة السلام ويواصلون الحفلة الى الصباح ولذلك يدعون هذه الليلة الليلة المنيرة والليلة البهيجة والليلة المشعَّة. وكان يزيد الحفلة رونقًا اتخاذهم في تلك الليلة اصناف الادوات الموسيقيَّة ليمجدوا قيامة الرب بالقرن والقيثارة والكنّارة والمعازف والدفوف والاوتار والارغن اذ قد قهر المسيح الموت بالغلبة وقام من بين الاموات بين تسابيح الملائكة وتماجيدهم

هذا ونصارى الشرق في سبت النور عادات تختلف على اختلاف الامكنة فمن ذلك انهم كانوا يسقون المتمدين جديدًا كأسًا من الحليب والعسل دلالةً على حداثتهم

في الايمان وحلاوة نير الرب . ومنهم من يصبغ فيه البيض الوانًا وهو بيض الفصح الذي مرَّ ذكره كاحد رموز القيامة (المشرق ٩ : ٣٤٥) . واخبر ابن الحاج في المدخل (١ : ٣٠٦) انَّ اقباط مصر «كانوا يكتحلون في صبيحة ذلك اليوم بالسذَّاب او الكحل الاسود او غيرهما ويزعمون انَّ من اكتحل من ذلك يكتسب نورًا زائدًا في بصره» . ومن عادات النصارى المحمودة انَّهم اليوم اذا صادفوا بعضهم يسلِّم الواحد على رفيقه بقوله : «قد قام المسيح» فيجيبهُ الآخر: «حقًّا قام» . وتدوم هذه افراح القيامة الى يوم عيد الصعود والمسيحيون في ذلك الوقت ينعشون ايمانهم بالقيامة العتيدة ورجاء الحياة الخالدة في السماء لعلمهم بأنَّ المسيح قد قام وهو باكورة الراقدين كما قال القديس بولس وانَّ موتهم ليس هو غير رقاد مثل موته سوف يتمُّ يومًا بقيامة اجسادهم ليلبس الفاسد عدم الفساد والمائت عدم الموت فيكسرون كفاديهم شوكة الموت كما كسروا شوكة الخطيئة بعبادهم وبرّهم . فشكرًا لله الذي منحنا الغلبة بربنا يسوع المسيح (١ كورنتوس ١٥ : ٥٧)

السنّ او آثار قصر الخلد وبقايا قصور البرامكة

لحضرة الاب الفاضل انستاس الكرملي

١ مقدمة

ان ايدي الزمان التي تعبث باحوال بني آدم وبآثارهم ومآثرهم قد لعبت ايضًا ببعض ابنية بغداد حتى انهُ يكاد يستحيل اليوم على الباحثين والعلماء المولعين بالآثار الوقوف على معاهد دار السلام في سابق الايام لو لم يبقَ بعض المقابر والمشاهد الدينيَّة التي حافظ اهل التقى عليها لاختلافهم اليها يومًا بعد يوم وسنةً بعد سنة وبواسطتها نستطيع ان نهتدي الى ما اندرس في بغداد من عمائرها السابقة

ومما يستوقف أنظار الانتظار ويستلفت شريد الأفكار انقاضٌ واقعة على ضفَّة دجلة في الكَرْخ يعني في الجانب الغربي بإزاء ما هما اليوم دارا قنصليَّتَي فرنسة والمانية وما بينهما الواقعتين على ضفَّة دجلة في الرُصافة اي في الجانب الشرقيّ من المدينة الزَوراء وهذه البقايا تُعرف اليوم باسم «السِنّ» وسبب تسميتها ظاهر وذلك انها تتقدَّم في دجلة وتقع فيه موقع السنّ من فم الانسان . وكل من رأى السنّ من الاجانب حكم